



٣٥ - شاط ١٩٥٦

العدد الثامنة والاربعون

صحف الكتابة وصناعة الورق في الاسلام

بفلم حبيب زويت

المقدمة

من افجع نكبات العلوم العربية في الشرق ضياع اكثر مؤلفاتها القديمة في الفتن والحروب المثنوية وتلفيا بين السنة النيران وافواه المياه وكأن كل هذه الجوائح لم تكن كافية لتزيق شملها وتغذية آثارها حتى كانت تميز عليها ايضاً ايدي الجيلة من الباعة والتجار والنساء، وقد ندب عماد الدين الاصبهاني سوء حظ كتبه ومسوداته ومصيرها بعد وفاته الى الاسكاف والطار فقال :

هي كني وليسر نضلع من بد ي لبر العطاره والاسكاف

هي اما مزارد النساء قير او بطن الخفاف

وكفى التركات العربية شقاء ان تثن صحفها فتكون مزارد لاسر وبهاتين

للخفاف والعصائب ثم نحلّ بها ايضاً نعمة الفياري من الساء . حكى ابن ابي
أصيحة قال :

« حدثني نسيب ارنق الدين بن المطران انه لما توفي كانت عنده مسردات عدة مصنفات
طيبة وعبرها وتمايقت منفرقة فأخذ احوانه تلك المسردات وصاعت بينهن وقال لي انه رأى
عند احدهن صندوقاً ارادت ان تبيته وقد الصفت في ماطه محلة من هذه الاوراق التي تحفظه^(١) »

وقال ايضاً في ترجمة الامير محمود الدولة ابي الوفاء المبشر بن فاتك الآمري
الطيب بعد ان وصف خزان كبه ودأبه في المطالعة والكتابة :

« كانت له زوحة كبيرة القدر ايضاً من ارباب الدواة فلا توفي رحمه الله نضت هي
وجوارجا الى خزانه كته وفي قلبها من الكتب وانه كان يشتغل بما عنها فجعلت تندبه وفي
اثناء ذلك ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدار هي وجوارجا ثم شملت الكتب
بعد ذلك من الماء وقد عرق اكثرها . فهذا سبب ان كتب المبشر بن فاتك يوجد كثير
منها وهو جذه الحال^(٢) »

ولم لهذه الضحايا من اشباه ونظائر منسية .

وكان قديماً لكل خزانه في دور العلم وبيوت الحكمة وإيقاف الجوامع
والمدارس أنبات وجرائد ناطقة بما فيها من المصنفات مفضلة لتفاتها وتوادرها
كالفهرس الذي كان في المدرسة النظامية مثلاً في بغداد . حكى احد من وقف
عليه بنفسه وهو شرف الدين ابو عبدالله محمد بن رضوان الحسيني المعروف
بالناسخ بإجماع فضل الله الصقاعي منه بدمشق في احد شهور سنة ستين وثمانين
(١٢٦٧ م) انه وقف في المدرسة النظامية المذكورة على فهرست ما صُنف في
الدولة الاسلامية من سائر الفنون الى آخر ايام المستنصر في سنة تسع وثلانين
وسمائه (١٢٤١ م) قال والفهرست ستة وخمسون مجلداً^(٣) . فما الظن بما كان
بعد ذلك في سائر المدارس ومعاهد العلم وخزائن الخاصة على كثرتها وقرتها في
أهم المدن والاقطار . ومن اعتبر ما كان لليروي وحده وقراً قول ياقوت ان
تصانيف البيروني في النجوم والمهنة والمنطق والحكمة تفوق الحصر وانه رأى
فهرستها في وقف الجامع بمر في ستين ورقة بخط مكتة^(٤) يدرك مقدار ما

(١) عيون الانباء في طبقات الاطباء ٢: ١٨١

(٢) عيون الانباء ٢: ٢٢٢

(٣) نالي كتاب الايمان لاصقاعي ٢٠٦١ باريس ٦٥

(٤) ارشاد الابل . لياقوت ٦: ٢١١

تلك من مؤلفات السلف والرفقاء وما حرمتها من كتبها وفوائدها .
 وفي مثل هذه الخلال من ضياع المؤلفات وجراندتها وخسارة الجرائن ونجاستها
 لم يبق لنا سبيل الى ان نعرف هل تقدم لاحد كتاب في تعريف صفف الكتابة
 وصناعة الورق في الاسلام . ومعلوم ان الكتب والرسائل الموضوعة في الحرف
 والفنون كانت في كل عصر ومصر قليلة نادرة لان مثل هذه الاوصاف كانت
 دائماً من اضيق الاعراض نطاقاً واعمرها مطلباً لما تقتضيه من المشاركة والتخصص
 في معنى ما تفرق من اخبارها وما يحول دون الاحاطة باسرارها من عناء البحث
 والاستطلاع وطول التفتيش والمراجعة . وهو ما لا يضطلع به الا من رُزق
 حظاً كافياً من الجلد والصبر وقيّد بحب العلم والافادة . ولذلك قات المصنفات
 والشروح في تعريف العلوم والصناعات وانواع المعاشات واعرض الوراقون عن
 الاهتمام بها وتوفير نصحها لزهّد الطلاب والقراء في شرائها وتحصيلها وانصرفهم
 عنها الى ما كان اعلى بدروسهم وامسّ بحاجاتهم كالكتب المختصة بالعلوم
 الدينية واللسانية . فلا عجب اذا خفي علينا اليوم جلّ ما ازدانت به الحضارة
 العربية من غرائب الفنون والحرف والتجارات .

ومن الاشارات التي انتهت اليها في شرح انواع الصناعات قديماً ما نقله
 الصفدي في ترجمة شرف الدين ابن اسد المصري المتوفى سنة ثمان وثلاثين ار
 سبع وثلاثين وسبعائة (١٣٣٧ - ١٣٣٦ م) انه « وضع كتاباً في مادة كتاب
 ابن مولايم في الصناعات الا ان الذي لابن مولايم في خمسين صناعة والذي لابن
 اسد في الف ومشتي صناعة ومنها مئتان تختصان بالنساء . قال : وهذا عمل كثير
 واستقراء عبيد^١ . ولا عمالة انه كان في هذين التأليفين ذكر اصناعات الورق
 لتعددها وانتشارها قديماً في مدن الشرق ولعلنا لا نبعد عن الحق اذا قلنا ان
 خسارتنا بضياع كتابي ابن اسد وابن مولايم تفوق كل خسارة اخرى لحاول ما
 بأيدينا من العوض عنها . وانكأ ما في هذه الحارة وادعاها الى التلهف والتحسر
 جهننا اليوم ما كان للنساء خصوصاً من انواع الاشغال والحرف وهي ادلّ على
 ما بلغت الحضارة الشرقية من التفوق والكمال واعرب عما تقدم في الحياة الاجتماعية
 من ضروب المعاش ووسائل الارتاق .

وقد اعدت كثيراً في التزيين والبحث وانبأ كل ما تناولته اليد من المطبوعات والمخطوطات في طواوفا على دور الكتب في الشرق والغرب فلم نظفر الا باسني كتابين فقط ورد فيها شي. من وصف صناعة الورق في الاسلام الاول كتاب « عمدة الكتاب وعدة ذوي الالباب » في صفة الحط والاقلام والليق والحبر والاصباغ وآلة التجليد الذي ألفه للامير الميز بن باديس ومنه نسخة سنية في المههد العلمي في ديباط . ونسختان ناقصتان في دار الكتب المصرية وثالثة في الخزانة السورية . ونسخ اخرى في الخزانة العربية في فينة . وهو الكتاب الذي ترجمه الى الالمانية وعلق عليه ونشره جوزيف ثون كراباتيک سنة ١٨٨٣ وضمته كل ما وسمه علمه من الفوائد في تاريخ الورق العربي^١ وغاية ما ورد فيه « الباب الحادي عشر في عمل الكاغد وتوسية الاقلام ونقشها وسقي الكاغد وتعتيقه » والكتاب الثاني مخطوط في الخزانة الآصفية بالهند لمحمد بن قوام المعروف بقاضي خان (٨٧٦ / ١٤٧١) دعاه المخترع في فنون من الصنع (كذا) وقد تفضل صديقنا الاستاذ كوركيس عواد بتصدير صفحات الباب الخامس منه وعنوانه « عمل الكاغد البلدي ووضع الاسرار في الكتب وما يحجر الدفاتر والرقوق » ولكن لسوء الحظ الفيناك كثير التحريف وفي مواضع منه بياض غير قليل فلم نستفد منه الفائدة التي كنا نتوخاها .

وهناك اجزاء وورقات وضمت في ذكر القلم والليق والحبر كإرسالة التي قرأناها في دار الكتب المصرية وليس فيها ما يُحتفل به ولها نظائر في الخزانة العامة والخاصة خلافاً لما تقدم في معناها ككتاب القام والدواة لمحمد بن عمر المدائني الذي اقتبس منه القاقشندي بعض اقواله في صبح الاعشى . ولا نشك انه قد فاتنا بضياعه فوائد شتى ان لم تكن في تفسير عمل الكاغد فلا محالة في اوصاف الورق وانواعه كالفصول التي وردت في مخطوط بارس (رقم ١٤٣٩) الموسوم غلطاً في رأينا بـ « ديان الانشا » وهي التي نقلناها في الكلام على الورق المصري والشامي .

ولما اخفق رجاؤنا ان نعث على دفائن اخرى في شرح صناعة الورق والاستزادة

A. Graham : *Arabic Papyri in the Egyptian Library*. 3 vol. Cairo (١

من رصفها اقبلنا على تصفح كل ما وقع الينا من كتب اللغة والانشاء والتراجم والسير والنوادر والمجاميع الادبية والاسفار التاريخية وقيدنا منها كل تصريح او تلويح الى القراطيس والكواغد واعمالها وانواعها واخبارها في الاسلام . وظللنا نعماني مشاق هذا الاستقراء الطويل عدة سنين حتى اعيانا المزيد . وضقتنا ذرعاً باكتشاف جديد ورأينا انه اجتمع لنا من هذه اللقط جانب ان لم يبلغ حد الكفاية ففيه على كل حال بلغة وغنا . في تاريخ الورق الشرقي فبدأنا على سبيل التمثيل بنشر فصول من مجموعتنا بعنوان « الجلود والرقوق والطروس » ظهرت في مجلة الكتاب في القاهرة (يولييه - تموز سنة ١٩٤٢ ص ١٣٥٨ - ١٣٦٦) ثم توقفتنا عن المزيد ريثما يتيسر لنا تفقد شي . من ماضي الكاغد وصناعاته في الاندلس العربي وهو ما اقتضى دهرأ طويلاً لتعذر السفر اليه .

وقد رتبنا ما عثرنا عليه من الفوائد والشوارد والاشارات ترتيباً تزجوان نكون قاربنا فيه شاكلة الصواب واستمنا في كتابة ما اخترناه في تعريف البردي والبرديات والقراطيب بمؤلف العلامة جرهمان^١ في المجلد الاول منه الذي عربته بشاركة الدكتور حسن ابرهيم حسن في القاهرة سنة ١٩٣٤ . وقسنا الكلام على ما سبق ظهور الكاغد في اوائل الخلافة العباسية من مواد الكتابة تقسماً يخال لنا اننا احطنا باهم اجناسه واطلقنا على هذه المكاتب وبينها الحجر والحزف والعظام والجلود والثياب لفظته الصحف لان الصحيفة في اللغة تتناول كل ما يكتب فيه وقد وردت لذلك بمعنى الجلد في حكاية دعبل الشاعر المعروف قال :

« جاءني ابو سعد المخزومي يوماً بينداد اشد ما كان بيني وبينه من الهجاء وبين يدي صحيفة ودراة وانا احجوه فيها . فامرت النلام برفع الدراة والجلد الذي كان بين يدي . فقال لي انا اليوم في دعوة عندك (وبعد أن أكل وشرب) ودعني واصرف وامت غلاني فخرجوا سه الى الباب فاذا غلام منهم قد اصرف الي بقطة قرطاس (فيها بيتان هجاء لدعبل) فقال دعبل : ويبي على اين الفاعلة هاتوا جلدا ودراة . . . فمدت الي هجائه^١ »

ومن اظهر الشواهد ايضاً على ورود الصحف بمعنى الجلود ما حكاه ابن المقفع عن الفرس وكتابتهم في الجلود البيض قال :

«كثرت ارسائل عيسى اذال تُقرأ على الملك وهي يومئذ نكتب في صحف عيسى وكان صاحب الخراج ياتي الملك كل سنة بصحف موصفة قد امنت فيها ما احتجني من الخراج وما اُتفق في وجوه النفقات وما جعل في بيت اذال فيجتمعا ويجريما . فلا كان ككبرى من درهم نأذى بروائح تلك الصحف واسر ان لا يرفع اليه صاحب ديوان حراجه مما يرفع الا في صحف مصفرة بازعتران وماء الورد وان لا تُكتب الصحف التي تُعرض عليه بحمل المائ الا مصفرة فتمثل ذلك»^(١)

وقد دعا ابو معشر البلخي مثل هذه المواد التي كان يُحطُ فيها «المكاتب» اي ما يكتب فيه وهي اصح تسمية واكثر مطابقة ولكننا اخترنا المدلول عنها لامكان التباسها بمواضع التعليم اليوم او مواضع كتابة الجند للحروب قديماً . ولا ريب انه شذ عننا كثير من اخبار الصحف واصناف عمل الكباغذ في الاسلام لقلّة ما كتب عنها او لضياعه بيد الحوادث والغير وما ثمرناه منها كاف على كل حال للدلالة على ما كان لهذه الصناعة والاتجار بها من القدر وجلالة الشأن وقد طبقت شهرتها آفاق المشرق وبقي لها الى اليوم آثار في مصطلحات كتاب المغرب .

١ - اللخاف والحزف

اللخاف حجارة بيض عراض رقاق واحدها لُخْفَةٌ وفي حديث زيد بن ثابت حين امره ابو بكر الخليفة الاول ان يجمع القرآن قال : فجعلت اتبعه من الرقاق واللخاف والُصْبُ^(٢) وفي صحيح البخاري قال زيد بن ثابت : فتبعت القرآن اجمعه من الصب والرقاق واللخاف وصدور الرجال^(٣) . ومن البديهي ان يكون اول ما عمد اليه الكتاب العربي لتسطير الكلام وتقييد الحواطر ما وقعت عليه عينه وتناولته يده من الحجارة البيض الرقاق العراض اللبس لهولة الخط عليها . واكثر ما كانت تستعمل في القرى والبوادي حيث يسهل وجودها واختيارها واما في المدن والحواضر فكانوا يوثقون عليها شفاف الحزف والنخار وما تكسر من صحاف النخار والآنية . وكان الشافعي في جداته يتلقطها في جملة

(١) فتوح البلدان للبلاذري طبة ارومة ٤٦٤: ٢

(٢) لسان العرب ١١: ٢٢٧

(٣) صحيح البخاري ٢: ١٦٢

ما يجتمع من صنع الكتابة لتدوين الحديث وهو قوله إسماعيل بن سليمان :
لما خرجت من الكتاب كنت اتلظ الحرف^١ .

وكانت مثل هذه الكتابة على الحرف باقية في أيام الخلافة العباسية حتى بعد ظهور الورق السمرقندي . ومن عزل عن ولايته بسببها إبراهيم بن المهدي أخي هريرة الرشيد وكان ولياً أماراة دمشق فأشتهى يوماً شرب الصبوح وأمر بإغلاق أبواب « الحضراء » دار ماوية قديماً حيث كان يقيم عمال دمشق ولم تكن خربت بعد خلافاً لمن ظن أنها زالت بزوال دولة الأمويين « فحضر الكاتب وسأله بعض الختم أن يكتب له إلى صاحب التزل وأعجله عن استخراج الدواة فأخذ فحمة وكتب في خزفة بجاجته فأخذ الحاجب سليم تلك الفحمة وكتب على الحائط « كاتب يكتب بفحمة وحاجب لا يبطل » واتفق أن وافى صاحب البريد وهو عين للخليفة يطالعه بأخبار المهمل والولاية فكتب بذلك إلى الرشيد وهو في مدينة الرقة ووصل إليه كتابه في اليوم الرابع فساءة وقع بعصر الرشيد على الكتاب عزول أخاه إبراهيم وجبه مائة يوم^٢ .
ومن أمراء العباسيين الذين كتبوا في الحرف قبل الخلافة عبده بن المعتز قال بعض من كان يخدمه :

« خرج يوماً بتقدمه ومعه ندماره وقصد الجديد وبستان الناعورة وكان ذلك آخر أيامه فأخذ خزفة وكتب عليها بالحر^٣ »

شياً لفضل زمامي ودهري المحسود
ولن ككيلة وصل قدام يوم صدود

قال وضرب الدهر ضربانه ثم عدت بعد قتله فوجدت خطه حنياً وثمته مكتوب :

أفت لكل زمامي دعيبي المحسود
فارتق اعلي والفي وصاحبي وودودي
ومن هوبت جفاني مطاوعاً لحسودي
يا رب موتاً والا قراحة من صدود^٤

(١) ارشاد الأرب نياقوت ٦: ٢٦٩ وناريخ ابن عساكر دار الكتب الظاهرية دمشق

٢٦٩: ١٢

(٢) تاريخ الإسلام للذهي خزائن أكسفر 83-182 fo 244 Lond. Or.

(٣) في الأصل المنبوع « وكتب على الخبس » والصواب ما اخترناه .

(٤) معاهد التصميم على شواهد التلخيص لعبد الرحيم بن أحمد المياحي ٢: ٤٤-٤٥

وكان صبيان المكاتب وبعض المتأدبين وطلاب الحديث يؤثرون هذه الصحف الحزبية الملس لتتيد ما يروق لهم او يُعَلِّي عليهم من الفوائد والجماعات. ومن اشهر الجرائد الذين كانوا يقصدون للحصول على امثال هذه الرقاع لتدوين ما يتعجبونه او يقع اليهم من الاخبار والاشعار او العتاهية قبل ان يجتوف الشعر حدث عبد الحميد بن سريع مولى بني عجل قال :

« انا رأيت ابا التمامة وهو جرار يأتيه الاحداث والمتأدبون فيشتم اشعاره فيأخذون ما نكسر من الخزف فيكتبونها فيها »^(١)

ولم يذكر احد بأي قلم او حبر في ما عدا الفحم والجص كان يكتب في اللخاف والخزف ولا سيما عند مفاجأة السماع ولعله كان لمثل هذه الصحف ادوات خاصة كالمقول الذي كان يكتب به على الألواح كما سيجي . . .

وفي داربي الكتب والتحف الملكية في القاهرة وبعض المتاحف الادارية في ثينة وبرلين وهمبرغ قطع معدودة من هذه الخزفيات العربية الجميلة . وكان بين انقاض قصر خزبة مفجر شمالي اريحا التي نقلت الى دار التحف في القدس قطعة من اللخاف كتب عليها بخط كوفي « لبدالله بن هشام امير المؤمنين من عبيد الله بن عمر سلم عليك فاني احمد الله اليك الذي لا اله الا هو . » وعثر في قصر الخير القريني على قطعة من اللخاف كتب عليها « من هشام امير المؤمنين الى ابي العباس احمد »^(٢).

٢ - الكرب والسب

الكرب اصول السنت الغلاظ العراض التي نيس فتصير مثل الكفف واحدها كربة^(٣) ومن اشهر من كتب الحديث على الكرب وملأ منها ومن غيرها الجباب والجرار الامام الشافعي كما سيأتي من قوله .

والسب جمع عيب وهو جريد النخل اذا نُجِي عنه خوصه والسبب من السنف فويق الكرب لم ينبت عليه الخوص . . . ومنه حديث زيد بن ثابت :

(١) الاغانى طبة بولاق ١٢٦:٣

(٢) مجلة المجمع العربي بدسنى (ايار - حزيران ١٩٤٣) ص ٢٢١-٢٢٥

(٣) لسان العرب عن المحكم ٢:٨٠٨

فجعلت اتّبع القرآن من العنب واللحاف ومنه ايضاً حديث الزهري : قبض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والقرآن في العنب والقَمْحُ^١ قال لييد يصف كاتباً :
 شعور كأن بييد بكنه فلا على عنب ذبكن وبان^٢

يريد بالعنب الذابطة اليابسة ويظهر ان العنب اليابنة كانت تفضل ما سواها ولذلك كانت اكثر ما تذكر في وصف مزامير داود قال امرؤ القيس :
 لمن طلل اجسرته فنجاني كخط زبور في عيب يان^٣

وقال كثير في وصف منازل البضع :

تلوح باطراف البضع كأخا كتاب زبور حُط لدأ عيبها^٤

ولم نجد من ذكر البان في غير بيت لييد المتقدم فهل كان يُستلح شي منه للكتابة ؟

٣ - لحاء الشجر

من اشهر انواع قشور الشجر التي كُتب فيها قبل الاسلام لحاء الكاذي . قال السمودي : كتب ملك الهند الى كسرى انوشروان . . . وكان كتابة في لحاء الشجر المعروف بالكاذي مكتوب بالذهب الاحمر . وهذا الشجر يكون بأرضي الهند والصين وهو نوع من النبات عجيب ذو لون حسن وريح طيب لحاؤه أرق من الورق الصيني تتكاثر فيه ملوك الصين والهند^٥ .

وسمى البيروني هذا اللحاء « تاري » في كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مردولة (ص ٨١ طبعة ليبسيك) ويشبه ان يكون الإسمان لمسى واحد ما لم يكن وقع تحريف في الثاني .

ويتحصل من قول حمزة الاصفهاني ان ملوك فارس سبقوا ملوك الهند والصين في الكتابة على قشور شجرة يقال لها الحذّنةك او الحذنةك تعمل منها القسي

(١) لسان العرب ٣ : ٨٩٠

(٢) ادالي القلي طبة الدار ١ : ٥٠

(٣) الهند الصين في دواوين الشراء الثلاثة الجاهليين ١٠٦

(٤) سجم البلدان طبة اروية ١ : ٦٥٨

(٥) مروج الذهب جامش نفع الطيب ١ : ٢٢٤

القري أيضاً^(١) تسمى حلاوة التوز. والمحدثك نوع من الجوز الأبيض قال جز: « سنة خمسين وثمانين (١٩٦١ م) ندم من انبيبة الحنة حارويه بي داخل مشية جي جانب وطهر منه بيت فيه نحو خمسين عدلاً من جلود مكتوبة بخط لم ير الناس قبله مثله فلا يدري متى احرز ذلك في هذه البية. وُسِّلت عما اعرفه من خبر هذه المصنعة المحجبة البناء فاخرجت الى حضرة الناس كتاباً لابي مسر البلخي مترجماً بكتاب اختلاف الريمة ويقول فيه : ان الملوك باغ من عنايتهم بصيانة العلوم وحرصهم على بقائها على وجه الدهر واشفاقهم عليها من احداث الجور وآفات الارض ان اختاروا لها من المكاتب اصبرها على الاحداث وابقاها على الدهر وابدعها من التمنن والدروس طاء شجر المحدثك وطلاؤه يسمى التوز وجم اقتدى اهل الهند والصين^(٢)»

وعن اشار الى ذلك ايضاً المافروخي قال : « كانوا يكتبون الكتب في طاء التوز اذ صادفوها ايمد من التمنن واسلم من الدروس^(٣). ووصف البيروني طاء التوز فقال يعملون به عملاً كالتدخين والصقل يصلب به ويلس ثم يكتبون عليها يعرف نظامها بارقام العدد المتوالي^(٤) .

ويظهر ان ورق التوز كان معروفاً موجوداً بدمشق في اواخر القرن السابع للهجرة وهو ما يستفاد من قول ابن شاکر الكشي في ترجمة جويان بن بسود القواس التوزي قال :

« لم يكن يعرف الخط ولا التجو وكانت كتابته من جهة التوير في غاية القوة بحيث انه استدار من القاضي عماد الدين بن الشيرازي دوجاً بخط ابن البواب ونقل ما فيه الى دوج بورق التوز وازرق ورق التوز على خشب واوقف عليه ابن الشيرازي فاعجبه وشهد له ان في بعض ذلك شيئاً اقوى من خط ابن البواب واشتهر بذلك في دمشق وبقي الناس يقصدونه ويفرجون عليه وكان له ذهن خارق وتوفي في حدود الثمانين وسبعمائة^(٥) (١٢٨١ م) .

ومن تشور الشجر التي كان يكتب عليها وتحمم بمخيم السلطان في مملكة الهند والسند ويتعامل بها كالتقود طاء التوت وهي التي دعاها ابن التوطي « الجاوز » وابن بطوطة « دراهم الكاغد^(٦) » قال شهاب الدين الصري في كلامه على المملكة المشار اليها :

(١) فهرست لابن النديم طبعة القاهرة ٣٣٦ وخطط اميريزي مطبعة النيل ١٨٦: ٦

(٢) تاريخ ملوك الاوض طبعة كلكتا ١٧٢-١٧٣ والاثر الباقية للبيروني ٢٤

(٣) محاسن اصفهان ٩٢

(٤) تحقيق ما للهند من مقولة ٨١ (٥) ذوات الوفيات ١٤٠: ١

(٦) طالع مقالاتنا « دراهم الكاغد » في الحزارة الشرقية ١٣٩: ٣-١٤٠

٥ معاملتهم بقصور من خفاء شجر التوت مطوعاً باسم العان فإذا غنق ذلك التماطر به حمله الى بواب العان واخذ عرضه مع حسارة لطيفة كما يؤخذ في دار الصرب على ما يؤخذ بها من الذهب والفضة فيصرب حالاً ومعاملتهم بورق التوت ومنها كبار ومنها صغار منها ما يقوم في الماملة مقام الدرهم أو واحد ومنها ما يقوم مقام درهمين ومنها ما يقوم مقام خمسة وأكثر الى ثلثين وخمسين وماه وهو يؤخذ من لحاء شجر التوت الأبيض ويغتم باسم العان وتجري به المعاملات فإذا غنق واضحل حمل الى الخزانة وأعطى عوضه مع غرم قليل (٢).

٤ - العظام والاكتاف

في لسان العرب : الكتف عظم عريض يكون في اصل كنف الحيوان من الناس والدواب كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم (١١: ٢٠٢).

وقال ابن التديم : « ان العرب تكتب في اكتاف الابل واللخاف وهي الحجارة الرقاق البيض وفي العيب عيب النخل » (٢) . وذكر ابن خلكان في كلامه على « مسك الجفر » وهو جلد الماغز تقول الشيعة ان الامام جعفر الصادق كتب لهم فيه كل ما يحتاجون اليه وكل ما يكون الى القيامة قال : « كانت عادتهم في ذلك الزمان انهم يكتبون في العظام والحزف وما شاكل ذلك » (٣) . ولا ريب ان هذه الكتابة في البادية كانت شائعة كل الشيوخ لكثرة الابل فيها وما كان يُنجر منها ولكنها كانت معروفة ايضاً في الحواضر وبقيت فيها الى ما بعد ظهور الورق وذلك لوفرة العظام والاكتاف قال الشافعي :

« لا خرجت من الكتاب كت انقظ الحزف وازقوق وكرت النخل واكتاف الجبال اكتب فيها الخديث والحبر الى الدواوين فاستوهب منها الظهور فاكتب فيها حتى كانت لأمير حباب للأخا اكتافاً وحزفاً وكرماً ملوؤة حديثاً » (٤) .

وكانت هذه الاكتاف سهلة المتناول يجدها المرتد لما من ايسر سبيل ويُترسل بها حتى الى النساء « قال الاصمعي : كان عمر بن ابي ربيعة وابن ابي

(١) الجزء الثالث من مسالك الايضار خزانة باريس ٢٣٢٥ ص ٤٤

(٢) الجزء الثالث من مسالك الايضار خزانة باريس ٢٣٢٥ ص ٤٦

(٣) الفهرست ٣١

(٤) وفيات الاعيان لابن خلكان ١: ٣٩٣

(٥) ارشاد الارب طبعة مرجانيوث ٦: ٣٦٩ وقاربخ ابن عساكر الظاهرية دمشق

عتيق جالدين بغنا، الكعبة مرت بيها امرأة من ربيعة وقيل من آل ابي سفيان
فدعا عمر بكتف فكتب فيها :

أولاً بدأت المال فامتطلما لنا على العمد بانف ودعا ام نمرما
وقولا معا ان النوى احذية لنا ولكم قد خفت ان نبتنا

فقال له ابن عتيق: «ما تريد الى امرأة مسلمة محرمة تكتب لها مثل هذا؟»^(١)

وحكى ابو الفرج الاصبهاني قال : حدثني مولى لبني كليب بن يربوع...
قال : كنت اجمع شعر جرير... فجاتني ليلة... فأكل ثم قال هلم نبيدك
ثم قال هات دواة وكفأ فأنثته بها فجعل علي علي قوله : «أولبي اللوم عاذل
والنابا»^(٢) .

وفي بعض الاقوال ان الجوارى والفتيات في عهد الخلفاء العباسيين كن
يتلقن مثل هذه الكتابة ويتدربن عليها ولاي دلامة المشهور قصيدة الى العباس
ابن المنصور قال فيها :

هذي مفاة شيخ من بني اسد جدي السلام الى العباس في الصحف
تخطها من جوارى مصر كاتبة قد طالا ضربت في اللام والالف
وطالما احتافت مينا وثانية الى ملسها باللوح والكف^(٣)

ولا نظن ان الاكثاف كانت تؤخذ من الأبل وحدها دون غيرها من
اكثاف الحمر الوحشية والغنم والماعز وفي دار الكتب والتحف المصرية نفائس
من الاكثاف المكتوبة .

٥ - الخرق والياب البيض

في خزانة الادب للبغدادي ان المقلقات المشهورة كانت تسمى المدهبات
قال : وذلك انها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بـ. الذهب
وعلقت في الكعبة^(٤) . ولاندرى عن نقل هذا القول وليس في الآثار القديمة ما

(١) كتاب الموشى لابي الطيب محمد بن اسحق بن يحيى الرشا ٦٥-٦٦

(٢) الاغانى ٩: ١٢٦

(٣) الاغانى ٩: ١٢٦ والمد الفريد لابن عبد ربه المطبعة الازهرية ١: ٨٠

(٤) خزانة الادب المطبعة السلفية ١: ١٢٤

يؤيده وفيه إشارة إلى استعمال القباطي في الجاهلية للكتابة . والقبا
قبطية وهي تياب من الكتان كان يصطنعها حاكّة القبط في مصر في
البياض والنقا . ولذلك صح تشبيهها باللبن المحض في بيت لرجل من الك
به المغيرة بن شعبة وكان اعور دميماً فشمه اذا مشى متأزراً بقبطينه بـ
ضرب من الحنفاء . يركض في اللبن فقال :

اذا راح في قبضية متأزراً فل حمل يستغني في لبن عض
ومن النسج التي كانت تستلح للكتابة الثياب القومية . يقال تم
نسبة الى قوهستان بلد في كورمان في فارس وهو ثوب ايض قيل له
الثرثيا وعمر بن ابي ربيعة غائب كتب اليها :

كُتبت اليك من بلدي كتابة موانه كسد .

وكتبه في قوهية وشنقه وحسنه وبعث به اليها فلما قرأته . . . كتبت ا
انا في كتاب لم ير الناس مثله اُمدد بكافور وسك وعد
وقرطاسه قوهية ورباطه بفسد من الياقوت صافٍ وحره
وربما كتبوا الصداق وهو مهر المرأة في النضائي البيض جمع نصف
الثياب وعد ابن الحاج مثل هذه الكتابة من باب المباحة والمخالفة
لبس النضائي باحاً للرجال والنساء . قال : « وهذا ليس يلبس وال
موجود وذلك منهى عنه ولهم في الرق وغيره من المباح اتساع »^(١) .
« ولا قال دجيل قصيدته المعروفة :

مدارس آيات خلت من تلاوة وستزل وهي معفر العرسا
كانت مكتوبة في ثوب بأحرم فيه وامر ان يعمل في اكفائه »^(٢)

وفي سنة ١٣٦/٧٥٣ هـ بايع ابو الساس السقاح لابي جعفر المنذ
المعهد بعده ولابن اخيه ابي بن موسى بعد ابي جعفر وكتب اليه

(١) الابي لفقار ٣٧٨

(٢) الصلابة مادة الدار ١ : ٢٢٥-٢٢٦

وخته بجائحه وخواتيم اهل بيته ودفعه الى موسى بن عيسى^(١).
وفي سنة ١٢٨٢/٦٨٠ هـ يوم السبت سادس رمضان حضرت رسل الملك
المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن علي بن رسول متملك اليمن وسألوا ان
يُكتب لمرسلهم امان على قيص وتعلم عليه العلامة السلطانية فأجيبوا الى
ذلك^(٢).

وكانوا يتخذون ايضاً الثياب البيض للتصوير واكثر ما يصور عليها « صفة
الدنيا » قال ابن النديم : « رأيت هذه الصفة في ثياب ديبقي خام باصباغ وقد
سُمّت الاصباغ^(٣) . ورأى البشاري المقدسي هذه الصفة « على كروباصة عند ابني
القاسم ابن الاناطي بنيسابور^(٤) . والكروباصة ثوب من القطن الابيض تغلب
عليه الحشونة ومثل هذا التصوير هو المعروف اليوم بالخارطة .

ومن اشباه هذه الثياب والخرق كانوا يتخذون الصرر لتغليف القرد وارسالها
بعد ان يُحطّ عليها اسم مرسلها. وعنوان من ترسل له وفيها كانت تدون بعض
الرسائل والمخاطبات والوثائق والبرقيات . وكانت الحياكة في بوسيد وسجنود
يعطنون خرقاً خاصة لمثل هذه الكتابات يجعلونها كالبطاقات ويعلقونها بأعناق
الجرار والاوعية التي كانوا يصونون فيها الكتب ومدارج القراطيس خوفاً من
تقصفها وتقطبها فكان بكل قطر منها بطاقة منوطة به باسم صاحبها بعد
استئزال البركة عليه كما يشهد بذلك ما وجدته في دفتان الصعيد من البرديات
المكتشفة في القرن الماضي .

وفي دار التحف المصرية وبين محرر البرديات في قبة امثلة في غابة النفسة
من قطع النسيج المكتوبة .

٦ - المهارق واثواب الحرير

لابحارث بن حلّزة الشكري من مملقته :

- (١) تاريخ الموصل رواية ابى ركريا زريد بن محمد بن اياس الازدي يخلد منصور في دار
الكتب المصرية رقم ٣٦٧٥ (تاريخ) ص ١٢٨
- (٢) اللوك لمعرفة دول الملوك للفريرزي ٢: ٢٠٣-٢٠٤
- (٣) الفهرست ٣٩٧
- (٤) احسن التقاسيم ٦

وادكروا حطب دي ابحار ور قدم فيه السبود والكمللا .
سدر الخور والتسدي ودر بهص ما ني المهارق الاهوا .

قال الزوزني : « المهارق جمع مهرق وهو فارسي معرب يأخذون الحرقمة ويطلونها بشي . ثم بصقلونها ثم يكتبون عليها شيئاً »^(١) . وروى صاحب لسان العرب قول حسان :

كم للنازل من شر واحوا لآل انباء مثل المهرق البالي
وقال :

« المهرق ثوب حرير ابيض يُسفر الصغ ويغسل ثم يكتب فيه وهو بالفارسية مهر كرد وقيل مهرة لان المرزة التي يغسل بها يقال لها بالفارسية كذلك »^(٢) .

وجاء مثل ذلك في المعرب للجواليقي وان اصحابها مهر كرده اي صقلت بالحُرز (وفي الاصل المطبوع صقلت بالحُرز غلطاً)^(٣) . وهذا التفسير هو الاصل ثم عم الصقل سائر الحرق والاثواب فأطلق لفظ المهرق عليها بالمشابهة وتناول في ما بعد كل صحيفة يكتب فيها كما عم لفظ القرطاس كل انواع الورق وهو في الاصل موضوع لصحف البردي . ومن شواهد اطلاق المهرق على كل صحيفة قول شيبم بن خويلد الفزاري :

نسمع اصوات كدري الفراغ . مثل الاعاجم تنضي المهرق القلبي^(٤)

وعند الجاحظ ان المهارق ليس يراد بها الصحف والكتب ولا يقال للكتب مهارق حتى تكون كُتِبَ دين او كتب عهد وميثاق وامان^(٥) وهذا اذا صح في بعض الشواهد كما في بيت الحارث بن حازمة المتقدم فلا يصح على الاطلاق والشواهد على خلافه في النظم والنثر كثيرة .

وكانت الكتابة على الصحف الحريرية اكثر ما تكون من خصائص الملوك ورجال الدولة والمترفين والاغنيا . « ولا صار عيسى بن موسى بقيد متوجهاً لتتال محمد بن عبد الله بن حسن كتب لوجال اهل المدينة في خرق الحرير »^(٦) . ونقل

(١) شرح المفاتيح للزوزني ١٨٣

(٢) لسان العرب ١٢ : ٢٤٧

(٣) المعرب للجواليقي ١٣٥

(٤) تقاتن جرير والفرزدق طبة ييقان ليدن ١٠٦ : ١

(٥) كتاب الحيوان للجاحظ طبة القاهرة ١٣٢٣ ص ٢٥

(٦) تاريخ الطبري طبة ليدن ٣ : ٢٤٤

عن الخليفة العباسي الراضي بالله انه « ضاق صدره لكثرة ما اضطرب عليه من قيام المتغلبين بالنواحي فقال احب ان انظر في اخبار الماضين من الملوك لانتلي بما مر عليهم فقيل له : ما نجد هذا مجموعاً الا في تاريخ محمد بن جرير الطبري فامر ان يخضر له فأعجه وقال : يُنسخ هذا في رق نظيف ويصور جميع ما فيه ويغزل فيه بيتاً وتوجه الى شتر (شتر) فاستعمل له ديباج منسرج بالذهب مكان الجلود »^{١١}.

وفي محاسن القيادة للجاحظ « ناولتني خريطة فيها اوراق فقالت : هذا اول ما ورد علينا منه. فاذا فيها ثوب خز ابيض يقق مكتوب فيه بلاء الذهب. »^{١٢}
وروى ابن خلكان ان المأمون « طالب والدة الفضل (بن سهل) با خلفة فحلت اليه سلة محتومة متفلة ففتح قفلها فاذا صندوق صغير محتوم واذا فيه درج وفي الدرج رقعة من حرير مكتوب فيها بخطه « بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قضى الفضل بن سهل قضى انه يعيش ثمانياً واربعين سنة ثم يقتل ما بين ماء ونار »^{١٣}.

وحكى ابن النديم ان « ملكة الفرمنجة كتبت الى المكتفي كتاباً في حرير ابيض وانفذته مع خادم وقع الى بلدها من جهة المغرب تحطب صداقة المكتفي وتطلب التزويج به وكان اسم الخادم علياً من خدم ابن الاغلب »^{١٤}.
واعناد الملوك والامراء. كتابة الصداق في الحرير « ولما تزوج هولاءكو بينت ملك الكرج داود قال ابن الجواب : وانا كتبت الكتاب في ثوب اطلس ابيض »^{١٥}. وفي سنة ٦٣٢ / ١٢٣١ تزوج مجاهد الدين ايبك ابنة بدر الدين لولو « وكتب الكتاب في ثوب اطلس ابيض »^{١٦}.

واقضى بهم الاغنيا. وقد سبق ان ابن الحاج عد ذلك من باب السرف والمخالفة. وقال علوان الحموي في اوائل القرن العاشر للهجرة « ان اقبج يدع

(١) قطب السرور في وصف الانبذة والخمور للرتيق القبرواني ٣٣٠٢ خزانه باريس ٢٥٣

(٢) المحاسن والاضداد المنسوب للجاحظ ٣٤١

(٣) وفيات الاعيان طبعة دسلان ٥٧٧

(٤) الزهرست لابن النديم ٣٠

(٥) المنهل السافي لابن تهريري بردي مجلد منصور في الجامعة المصرية في القدس ٨ : ٢٩٤

(٦) الحوادث الخاصة لكمال الدين ابن القوطي ٧٢

ما حدث في بلادنا في الاعراس . . . فإذا جرى العقد إلى أهل العروس أن يكتبوا ذلك على حريز نحو ذراع أو أكثر إسرافاً وتبذيراً^{١١} . ولكن تابع الدين البكي رجيع جواز مثل هذه الكتابة وقال : وأما كتابة الشرطين الصداق في الحريز فمختلف في حوازه وافتى النوري بتحريره وعزاه إلى جماعات من أصحابنا ولكن الأظهر حله لأنه لمصلحة النساء^{١٢} .

وندر جداً أن يكتب الصداق في غير الثوب الحريز الأبيض وفي مجلة المجمع العلمي العربي صفة عقدين كتب في أواسط القرن الثامن للهجرة على قطعتين من نسيج الحريز الأخضر لم يُبَاهِما مر الزمان ولم تُصَبَّ احداهما بأدنى تزق وتحرق^{١٣} فبأي حبر يا ترى كانت تمكّن الكتابة على الحريز الأخضر حتى يأتي عليها الدهر دون أن تزول .

٧ - الألواح

لم نجد لأحد قولاً في الألواح وتعريفها على كثرة الإشارة إليها في كتب الأدب وورود لفظها في القرآن وهي قديمة سبقت الإسلام وأول ما اتخذت في ما يظهر من جراند النخل التي تُزَعُ خصوصاً وكان يقال لها السبورة بالبلاء والسفورة بالفاء. وفي الحديث : لا بأس أن يعلي الرجل وفي كفه سبورة قالوا : « هي الألواح من الساج يكتب فيها التذاكير^{١٤} » والساج خشب اسود رزين طويل البقا. وربما اتخذت أيضاً من الأكتاف وعليه تفسير الأزهري : اللوح صفيحة من صفائح الخشب والكف إذا كتب عليه سمي لوحاً^{١٥} .

وأكثر ما كانت تتخذ الألواح من الخشب المصبوغ بالسواد تفشاها طبقة من الشح ليسهل الكتابة عليها وعوها ولعلها اصطُغت أيضاً من الحجر اللدن

(١) نيات الأيثار في نيزد بين كرامات الأولياء والأخبار لطيفة بين حسن المئاب بملوان الحنوي رقم ٩٧ و٩٨ من دار الكتب الظاهرية بدمشق طالع خزائن الكتب بدمشق وضواحيها ص ٥٤

(٢) ميد النعم ومبيد النعم طبعة ليدن ٨٥-٨٦

(٣) مجلة المجمع العربي بدمشق ٢١: ١٩٠-٤٢٦

(٤) لسان العرب ٦: ٥٠٦ وناج الدرر ص ٣: ٢٥٢

(٥) لسان العرب ٣: ٤٢١

وبعض المعادن كالأحماض . ولا يبعد كذلك ان تكون اتخذت أخيراً من الورق المضغوط المصقول بعد انتشار صناعة الورق لحفة حملها بي الأكام وسهولة تجديدها ولكن معظم ما كان يُصطنع منها من صفائح الحُشب المودُ لخصها وقدرة احداث المكاتب على اقتنائها وكانوا يتدربون في كل حين على تعلم الكتابة فيها ونسخ ما كان على عليهم من آيات القرآن فكانوا لا يفارقونها دائماً لانتفاعهم بها وتيسر محوها او غسلها حتى ان بعض واقفي المدارس من الوزراء والاعنياء كانوا يشترطون على الايتام صب مياه غسل الاالواح على قبورهم ترلفاً وتبركاً بما حُطت عليها من آيات القرآن . قال صلاح الدين الصفدي في تاريخه : حكى لي القاضي شهاب الدين بن فضل الله رحمه الله تعالى قال : اجترت بتربة الصاحب تاج الدين بن حنّاء المصري فرأيت الى جانبها مكتباً للايتام وهم يكتبون القرآن في الزواجر فاذا ارادوا مسحها غسلوا الاالواح وسكبوا ذلك على قبهه فسألت عن ذلك فقيل لي هذا شرط الواقف «^١» .

ولهذا السبب اي كتابة القرآن على الاالواح اشترط الفقهاء شروطاً لفعلها قال ابن الحاج المائتي :

« ينبغي للزودب بل يجب عليه ان يكون لمسح الاالواح موضع ظاهر صان نظيف لا يمشي فيه بالاقدام ثم مع ذلك يأخذ الماء الذي يمنع من المسح فيجفر له في مكان ظاهر صان عز ان يضاء قدم ويحمل فيه او يلقه في الحجر او البئر وكذلك الماء الذي ينزل به الحرق بعد المسح يحمل في موضع بعيد لا يهتز ويشترط في الحرق التي يمسح بها الاالواح ان تكون ظاهرة وان يكون الماء الذي يبل منه حين يمسح به ظاهراً والانتضال ان يكون الماء نير مستعمل وان امكنه ان يكون حلزماً فهو اولى لان من الناس من يسره للاستشفاء به فاذا كان أحاجباً امتنع عليه ذلك او تنص بشريه «^٢» .

وكان يقال لهذه الحرقه التي يمسح بها اللوح «الظالسة»^٣ من طاس الكتابة اذا ازالها ومحاهها^٤ وكان لهم اداة اخرى يقال لها المنجل اقتصروا في تعريفها على انها شيء . تحمى به الواح الصبيان^٥ دون اقل بيان كعادتهم كثيراً في تفسير

(١) فوات الوفيات لابن شاعر الكنجي ١١٢: ٢

(٢) المدخل ١٦٥: ٢-١٦٦

(٣) تاج العروس ١٧٩: ٦

(٤) تاج العروس ١٧٨: ٦

(٥) تاج العروس ١٢٨: ٨

الفاظ الحضارة واستدرك في تاج العروس « انجل الصبي لوحه اذا محاه »^١ .
 واكثر ما كان يكتب في اللوح باقلام الجص والطباشير وقد اشار
 كشاجم اليها في شعره له سيجي . فقال : « وقلم مداده تراب » وذكر ايضاً
 البشاري المقدسي اترية اخرى في كلامه على تجارات فارس فقال : وبيننا (من
 نواحي شيراز) معادن حديد وطين ابيض يكتب به الصبيان الواحهم وطين
 اسود للخطم^٢ » وكان لهم قلم من حديد يكتب به لا شك فوق الشح يقال
 له المسرول^٣ ولكن اقلام التراب كانت اكثر انتشاراً واوفر استعمالاً لقرب
 تناولها في كل مكان وتزارة قيسها واشراق يابضها على سواد اللوح^٤ وقد
 تقدم ان من انواع الحشب التي تعمل منها الواح الصبيان وطلاب الحديث الساج^٥
 لوزاته وقلة بلائه وكان لارباب الثراء والمتأنقات من النساء الواح خاصة من
 الآبتوس لجأله وسواده ونصوع الكتابة فيه ومنه الواح كانت لمحمد بن بشير
 احد شعراء كتاب الاغانى تناط بسير احمر يكتب فيها بالليل « زانها صفان من
 صدف » اخذها منه قثم بن جعفر بن سليمان احد نضرائه فقال ابن بشير
 متاهماً عليها :

أبت اللوح اذ أخذت حرفة في القلب تضطرم
 زانها صفان من صدف واحمرار السير والظلم
 ونولي اخذها قثم لا نولي فعبها قثم^٦

ثم ندب فقدها في ابيات آخر وصف فيها كل ما اجتمع فيها من المنافع
 والمرافق فقال :

ابنوس دماء حالكه الورق ن لوب من اناناف المزج
 ذات وقع حقبفة الزندر والمجسول حاكوكة الذرى والنواحي
 وسريع جفوفها ان سخاها عنه تحمل مستبجل النوم ماح

(١) تاج العروس ٨ : ١٣٢

(٢) احسن التقاسم ٤٤٣

(٣) القاموس المحيط للفيروز ابادي ٤ : ٥٢ ونجاح العروس ٨ : ١٢٠

(٤) كتاب البلدان لابن القتيبة ٤٥

(٥) تاج العروس ٣ : ٢٥٣

(٦) الاغانى ١٣ : ١٣٩

هي كانت عمدي وعي الآداب وبعده أعتني وصلاحه
 كنت أعددو بها على طاب العشم اذا ما عدوت كل صباح
 هي كانت عدا، رزوي ادارا رزوي الندم يوم اصطاحي
 آب عمري وغاب بدي وحوذي حين غابت وغاب غني سماحي^(١)

وفي البيت السادس معنى فسرهُ ابو الفرج الاصبهاني بقوله : « يعني انه
 يعمل فيا الشعر ويطلب لزواره المأكول والمشروب »^(٢) . واذا أخذ هذا البيت
 على ظاهره فهل يستفاد منه ان ابن بشير كان اذا اراد ان يتناع شيئاً من
 البقال او الطباخ او الحمار كان يكتفي لقله ما لديه من القرطاس او لارتفاع
 اقامته ان يبعث اليهم بالواحه كالرقعة يطلب بالشعر ما يريد . واذا صح هذا
 الظن يكون من اطرف ملجح الالواح واغرب فواندها في تاريخ الحضارة العباسية .
 ويتضح من اوصاف ابن بشير واتفاق كل الاخبار ان الالواح كانت عمدة
 الشعراء في تدوين بنات افكارهم وعمدة كل كاتب وراو وطالب للحديث
 والعلم . « تحدث الاصمعي عن عيسى بن عمر قال : كنا نشي مع الحسن و. معنا
 عبدالله بن ابي اسحق فقال الحسن : جاذبوا هذه النفوس فانبأ طلعة فأخرج
 عبدالله بن ابي الشهبز الواحه فكتبها وقال : استندنا . نك يا ابا سعيد «طامة»^(٣)
 وروي عن ابي عبيدة انه قال : « اختلفت الى يونس اربعين سنة املاً كل يوم
 الواحي من حفظه »^(٤) . بل ارااد جرير ان يرد على احد منا قضية « اقبل الى
 منزله وقال للحسين رابته . رد في ذهن سراجك اللبابة واعدد اذراحك
 ودواة »^(٥) .

وكانوا اكثر ما يستعينون بهذه الالواح للكتابة العاجلة ثم يتقانون ما فيها
 الى الدفاتر كما جاء في ترجمة كيسان بن المعروف النحوي ابي سليمان المجيسي
 قالوا : كان يخرج الى الاعراب فينشدون فيكتب في الواحه ما ينشدونا وينقل
 من الواحه الى الدفاتر^(٦) ولذلك قال احد الشعراء :

(١) الاغانى ١٣ : ١٢٩

(٢) الفهرست لابن الندم ٦٣

(٣) ارشاد الاربيب ٧ : ٢١٠

(٤) نقائض جرير والفرزدق طبعة يمان لندن ١ : ٤٢٠

(٥) ارشاد الاربيب ٦ : ٢١٥

١ اجا الطالب الآداب ميّداً لا كنهه عن حملك الألواح للادب
فحلها ادب تخوي به ادباً وسوف تنقلها فيها الى الكتب
وليس كل وقت ممكناً فام ودعتر يا عدم المثل في انجب^(١)

وفي خبر سعد الوراق والعلام المترهب عيسى قال الشاعر ابو بكر الصنوبري:
عبرت يوماً انا والمعوج الشامي من بستان بتنا فيه فرأينا سعداً الوراق جالساً في
ظل الدير وهو عريان فعذلناه وعضفناه فقال: دعاني من هذا الوسواس ثم التفت
الي وقال: يا صنوبري فقلت نعم قال: اكتب...^(٢)

وما سبق يقين ان الألواح كانت لا تفارق كم كل اديب ومعلم وكاتب
وكانت الدواوين السلطانية نفسها لا تخلو من هذه الألواح يستعمل بها بعض
العمل والمركبين لتقييد الشوارد والطوارئ وهو ما يؤخذ من قول الشافعي:
دخلت المراق في خلافة هرود الرشيد فمعد دخول الباب تعلق بي غلام فلاحظني
وقال: ما اسمك فقلت محمد فقال ابن من قلت: ادريس الشافعي فقال:
مطلي؟ فقلت اجل. فكتب ذلك في لوح كت في كتبه وخلى سبيلي^(٣).

ومن اغرب ما بلغ اليه رواج الألواح وانتشارها في كل الطبقات انه كان
اذا ولد مولود يوضع عند رأسه لوح ودواة وقلم، وهو ما ذكره ابن الحاج قال:
«... يبني ان يمتدح بما اجرزه بعضون في لغة الساج وهو ان يكون عند رأس المولود
المنه والفرج والدواة والقلم فورئف من انجب وفننه سكر ان كان مفلاً ومن كانت له
سعة عجز رعباً كبيراً من الكماج والفرجة من انسكر وطبناً من الفاكهة ورقة من التفل
وتسماً ومن كان فقيراً اخذ من كل واحد شيئاً ما فاذا كانت جيبه تلك اليازة فرأين كل
ما اجتمع عند رأسه من ذلك وبزعم من انه بركة»^(٤)

وكان صناع الألواح وبائعها يسمى الألواحي ومن عرف بهذا اللقب محمد
ابن علي بن المنتخب المحب بن الملا ابن الشمس الحلبي... يعرف جسده
بالألواحي لعلمها^(٥)

(١) المحاسن والساوي للديلمس ١: ١١

(٢) الديارات النصرية في ديار الاسلام لنا ٨٢

(٣) غمرات الوراق لابن حجة ١٧٢

(٤) المدخل ٣: ٥٥-٥٦

(٥) الفصول اللامع لاهل القرن التاسع لشمس الدين السناوي ٨: ٢١٠

وفي الألواح كانت تنقش بعض المراسيم السلطانية وتعلق على أبواب الجوامع فتشيع وتشتهر ولما حظ نظام الملك بعض الاعمال الثقيلة « امر ان ينشأ في هذا المعنى مثل ويسخ منه نسخ تقرأ في الجوامع وبالاطراف على رؤوس المنابر وفي صدور المحافل والمحاضر وبان ينقش كتبه في الالواح تُسَر على كل باب جامع ومسطح يتأملها البلدي والقريب ويتسامع به البعيد والقريب »^(١).

وكان في المغرب مثل هذا الاعتقاد للالواح بين العامة والخاصة والامراء والملوك وفي الاخبار المرورية عن ابي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن امير المعامدة الموحدية قالوا « لما تجهز امير المؤمنين الى غزو الروم امر العلماء ان يجتمعوا احاديث الجهاد تُقلى على الموحدية ليدرسوها وهكذا جرت عادتهم الى اليوم فجمع العلماء ذلك وجازوا به اليه فكان عليه على الناس بنفسه فكان كل واحد من الموحدية والسادة يجي بلوح يكتب فيه الاملاء فجاء هلال (بن محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش) يوماً ولما لوح معه فاخرج القوم الواحهم فقال له الوزير : اين لوحك يا ابا القدر (وكانت كنيته) فخرج واقتنع بعتدرا فاخرج له امير المؤمنين من تحت برنسه لوحاً وناوله اياه وقال : هذا لوحه . فلما كان من التدجاء ومعه لوح غير الذي دفعه له امير المؤمنين فلما نظر اليه قال له : اين لوحك بالامس يا ابا القدر فقال : خبائه واوصيت اذا مت ان يجعل بين جلدي وكفني »^(٢).

ومن افضل ما وصفت به الالواح ابيات لكشاجم الشاعر المعروف قالها في الواح آبنوس وهي كما جاءت في ديوانه المطبوع :

م المدين على الآداب والحكم	صحائف حائك الانوان كالظلم
لا تمتد مداً غير صيتها	فسر ذي الالب فيها حد مكنتم
جأت وحفت نلم بدنى ضامها	ثوب ولم يغش منها نورة القلم
وامكن المحو فيها الكف فانت	لما تُصن من نشر ومتنم
حليها احببت واتخت لها	وقانه من ذكي العود لا الأدم
فالكم بيتي منها حجب تُودعه	عرناً تُنتم منها العليب بالشم
لو كن الواح موسى حجب اغضبه	هرون لم ياتها خوفاً من الندم ^(٣)

(١) محاسن اصهان للفضل بن سعد بن الحسين المافروخي طبعه طهران ص ١٠٢-١٠٤

(٢) الحج في تلخيص اخبار المغرب للسراكتي ١٨٣

(٣) ديوانه المطبوع في بيروت ١٦٨

ويستدل من هذا الوصف ان الواح كشاجم كانت محلاة بالفضة خليقة
باشعاره الذهبية وكان لها صرمان من العود الذي تحفظ به حتى اذا وضعت في
الكم اكتسبه طيباً وانتشرت منها ومنه رائحة العود وهو نهاية في التنوع والترف.
ويظهر انه كان من الالواح نوع يقال له لوح الهندسة او تحت الحساب لا
ندري من وصفه الا قول كشاجم فيه :

ونظام مداده نراب في صنف بطورها حساب
بكثر فيه الحجر والإضراب من غير ان يسود الكتاب
حتى يبين الحق والصواب وليس اعجاب ولا اعراب
فيه ولا شك ولا ارتباب^(١)

ومن اوصاف الواح كشاجم وما تقدمها من الاخبار والملمع يتضح لكل
بصيرة ما كان لصناعة الالواح وترويقها وتجارتها في الشرق العربي من الشأن
والشهرة والارواح بين كل الطبقات والاقوام من الاحداث والرجال والنساء.
فكان لا يخلو منها منزل ولا حانوت فضلاً عن المكاتب والمدارس ولا تكاد
تفارق فراش المحدث والشاعر ويد الناصع والسائر واليهما كان يوجع حفظ الطالب
وقلم الكاتب والنجيب فكان قسطها في خدمة الدين والعلم والحضارة يفوق
قالاً قسط الكرواغذ والجلود والرقوق لخص الالواح وغلا الصنف ولم يترفع
الملوك والامراء انفسهم عن حملها احياناً تحت برانسيم كما مر بنا آنفاً . على
اننا لسر الحظ لم نوفق للمثور على اقل اشارة اليها بين اولاد الخلفاء العباسيين
فلا ندري هل تأبطها ابن المعتز مثلاً ولم يوصي اليها مرة في شعره ولم يرو لها
ذكر في جملة ما كان يجهزه خدم القصر من ادوات الكتابة لاولاد الرشيد حين
كان يؤدبهم الاحمر^(٢) خلافاً لابناء المروانيين في الاندلس فان الصبي منهم كان
يتردد كل يوم ببلوحيه ليشعر على الكتابة فيه بانامله الرخصة حتى اذا تدرج
الى بعض الاجادة في التقليد والرسم تطير البشائر بمجذقه وتقام من اجله الافراح.
ولما نشأ لابي الاصبع عبد العزيز بن الناصر ولد دخل الكتابة وكتب اول

(١) محاضرات الراغب ١ : ٥٤ وديوان كشاجم المخطوط في ملك الدكتور سامي
الدهان .

(٢) ارشاد الارب لياقوت ٥ : ١١٠

لوح فيه بعث ابو الاصبع بلوچه الى اخيه الحاكم المنتصر ملك الاندلس
وكتب معه :

هالك يا مولاي حطاً طنه في اللوح مطاً
ابن سبع في سبب لم يُطق اللوح ضمطاً
دنت يا مولاي حق بلد ابن ابنك سبطاً^(١)

٨ - الجلود

كان اكثر كتابة العرب وملوكهم في الجاهلية وبدء الاسلام في الجلود
ويقال للديبوغة منها الأدم ومنها كانت صحيفة المتلمس التي يضرب بها المثل .
واكثر ما كانت هذه الأدم من جلود الابل لوفرة ما كان ينحر منها للطعام وقرى
الاضياف وبها كان معظم تجارهم في الاسواق وفي ما جاور من البلاد واشتهر
بها في الجاهلية ابو سفيان والد معاوية وعمرو بن العاص « قيل كان عمرو بن
العاص تاجراً في الجاهلية وكان يتخلف بتجارته الى مصر وهي الأدم والطره^(٢)
وربما قام ببيع الأدم في الاسواق بعض النساء كالحرمية التي ذكرها النابغة
الذبياني بقوله :

كادت تصافيني رحلي وسيثري نذي انجاز ولم تنس به نه
من قول حرمية قالت وقد ظنوا على في تنسبكم من يثري أدماً^(٣)

واشتهر الين تحدرصاً بوفرة الأدم فيه حتى كانوا يكونون بها عن الدراهم
فيقال : « ليس بين الدراهم والأدم مثله » . يزيدون بين العراق والين لان
تبائع أهلها كان بالدراهم والأدم قال اوس بن حجر :

وما عدلت نفسي بنسك سداً سمعت به بين الدرام والأدم^(٤)

قال الاصمطيخري : « في صعدة يتخذ ما كان يتخذ بصنعا من الأدم ويتخذ
بنجران وجرش والطائف أدم كثير غير ان اكثر ذلك يرتفع من صعدة وبها

(١) نفع الطيب للسفري ٢: ٢٢٢

(٢) كتاب المولاة وكتاب القضاة لابي عمر الكندي ٦-٧

(٣) شعراء النصرانية ٤: ٧٠٧

(٤) اساس البلاغة للزمخشري طبة الدار ١: ٧

مجتمع التجار والاموال^{١١} . وقال البشاري المقدسي : « صعدة اصفر من صنعا . عارة في الجبال يسا تصنع الركا . الحيدة والانطاع الحسنه ومنها يرتفع آدم جيد . . . ونجران مثل جرش وهما دون صعدة واكثر ما يرى من الأدم في هذه المدن^{١٢} . »

وكانوا يكتبون ايضاً في جلود الفم والمغزى والحمر وسائر الدواب الاهلية والوحشية وفي جلود الظباء . وفيها كتبت مصاحف القرآن والتوراة ايضاً^{١٣} . ويظهر ان جلد الحمر كان يسمى الفلجان ولم نجد هذه اللفظة في معجمات اللغمة ذكرها ابن النديم في قوله : « ان القرس كانت تكتب في جلود الجواميس والبقر والتم وان الروم تكتب ايضاً في الفلجان وهو جلود الحمر الوحشية^{١٤} . » وذكر ايضاً انه اجتمع في مدينة الحديشة برجل يقال له محمد بن الحسين ويعرف بابن ابي بقره جماعة للكتب له خزانه قال : لم ار لاحد مثلها كثرة . . . فاخرج لي قطراً كبيراً فيه نحو ثلثمائة رطل جلود فلجان وحكاك وقرطاس مصر وورق صيني وورق تبامي وجلود وادم وورق خراساني فيها تطبيقات عن العرب^{١٥} . ومن شواهد الكتابة في جلود الماعز كتاب الجفر المشهور الذي ذكره ابي الملا . بقوله :

لقد عجبوا لامل البيت لما انام عليهم في مسك جفر

« والمسك هو الجلد والجفر ما يبلغ من الماعز اربعة اشهر وجفر جنباه وانفصل عن أمه^{١٦} »

ومن اعرب ما كتب فيه جلد الخف خوف علي بن ابي طالب قبل خلافته . قالوا ان الكتاب الذي كتبه الرسول لتيم الداري واخوته في سنة تسع من الهجرة منصرفه من غزوة تبوك كتبه علي بخطه في قطعة من آدم من خفه^{١٧} . وكانت الجلود البيض تفضل للكتابة لظهور سواد الحبر عليها ويقال لها

(١) مالك المالك ٢٦

(٢) احسن التقاسيم ٨٧

(٣) تاريخ الهند لليروني ٨١

(٤) الفهرست طبعة القاهرة ٣١

(٥) الفهرست ٦٠-٦١

(٦) وفيات الاعيان ١: ٣٩١-٣٩٢

(٧) مالك الابصار للمصري ١: ١٧٣

القُصَمُ جمع قُصِمَ وفي حديث الزهري : « قُصِرَ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والقرآن بي الصب والقصم »^١ . ومن شواهد الكتابة على الجلود والحمر : « ان اسقف نجران اتى علينا ومعه كتاب في اديم احمر قال : اسألك يا امير المؤمنين خط يدك وشفاة لسانك » يعني لما رددتنا الى بلادنا قال فابى علي ان يردهم^٢ .

ولا حاجة الى القول ان الكتابة على الجلود قبل ان تعرف الدباغة الكوفية كانت تصعب جداً ولا شك ان الجلود كانت تُصقل قبلاً ليهون مر القلم عليها ويسرع الحُط فيها . ومن الادلة على ذلك ما حدث به محمد بن الجهم السري قال : « كنا اذا اتينا الاحمر - مزود اولاد الرشيد - تلقانا الخدم فندخل قصرًا من قصور الماركة . . . ويدفع الينا دفاتر الكاغد والجلود قد صقلت والمحابر المحروطة والاقلام والسكاكين »^٣ . واعلمها كانت تصقل ايضاً وتباع كذلك في حوانيت الجزائر ليتسكن المشتري من الكتابة عليها حالاً دون انتظار اصقلها . وما يدل على ذلك ما روي عن سعيد بن العاص قال ابن عساکر :

« اتى عمرو بن سعيد بن العاص فنى بن قريش يذكر حقاً له في كراع اديم بشرين الف درهم على سعيد بن العاص بنحط مولى لسعيد كان يقوم لسعيد على بعض ثقافته وبشهادة سعيد على نفسه بنحط سعيد فعرف خط المولى وخط ابيه وانكر ان يكون للفنى وهو صلوك بن قريش هذا المال فأرسل الى مولى ابيه فدفع اليه الصك فلما قرأه المولى بكر ثم قال : تم اعرف هذا الصك وهو حق . دعاني مولاي فقال لي - ومدد الفنى عنده على يابه - هذه القطعة الادمي - اكتب . فكنت باملائه هذا الحق فقال عمرو للفنى : ما سب مالك هذا؟ قال : رأيت وهو محزول ببني وحده ففتت ثمتت . . . حتى بلغ دانه ثم وقف فقال : هل لك من حاجة فنك : لا . الا اتى رأيتك ثمتي وحدك فأحبت ان أعدل حناحك فقال : وصلتك رحم يا ابن اخي وقال : ابنتي قطعة اديم فانبت جزأراً عند باب داره فأخذت منه هذه القطعة فدعا مولاي هذا فقال : اكتب فكتب وامل عليه هذا الكتاب وكتب شهادته على نفسه ثم وقه الى وقال : يا ابن اخي ليس عندنا اليوم شيء . فخذ هذا الكتاب فاذا انا شيء فأثنا به ان شاء . ان مات رحمه الله قبل ان ياتي شيء . »^٤

واول ما عولجت الجلود بالنسرة وبقيت مع ذلك عاسية لا تخار من بعض

(١) لسان العرب ١٥ : ٣٨٦

(٢) كتاب المراج لابي يوسف الطيعة السلفية ٨٨

(٣) ارشاد الاربيب لياقوت ٥ : ١١٠

(٤) تاريخ ابن عساکر دار الكتب الظاهرية بدمشق ٢ : ١٣٦ والبدنية والنهاية لابن

الشواذب والآفات لأن الدباغة لم تكن بلغت المبلغ الذي انتهت اليه من الإصلاح والتطرية والجودة . ثم حدثت الدباغة الكوفية وتحسنت طرق معالجة الجلود فلانت ورقمت وتحلّت فهان الحُط عليها . وفي الشعر عدة اشارات الى الكتابة على الاديم اعتادوا ان يشبهوا بها رسوم الديار والدمن قال المرتشي :
الدار نسر والرسوم كما رُقش في ظهر الاديم قلم^(١)

وكانت الفرس قديماً تتخذ الجلود في الدواوين لطول بقائها وسبقهم في ذلك اليونانيون والروم وكانوا يكتبون فيها اسماء الجيش وازواقهم قال ابن النديم : « والذي رأيت انا بالمشاهدة ان ابا الفضل بن العيد انفذ الى هنا (بغداد) في سنة ثيف واربعين وثلثمائة (١٠٥١م) كتاباً متقطعة أصيبت باصفهان في سور المدينة في صناديق وكانت باليونانية فاستخرجها اهل هذا الشأن مثل يوحنا^(٢) وغيره وكانت اسماء الجيش ومبلغ ارزاقهم وكانت الكتب في نهاية نثر الراححة حتى كأن الدباغة فارقتا عن قرب فلما بقيت ببغداد حولاً جفت وتغيرت وزالت الراححة عنها ومنها في هذا الوقت نشي . عند شيخنا ابي سليمان^(٣) . ولا يخفى ما في احوال استخراجها وضياح مضامينها من الحسارة للتاريخ والعلم .

وروى ابن المقفع ان الاكاسرة كرهوا رائحة دباغة الجلود حين كانت ترفع اليهم فامروا بتصفيرها بالزعفران وتطيبها بالورد وحكى البلاذري في هذا المعنى انه لما ولي صالح بن عبد الرحمن خراج العراق تقبل منه ابن المقفع يَكُوْر دجلة ويقال بالبيباد فحصل مالا وكتب رسالة في جلد وصفرها فضحك صالح وقال : انكرت ان يأتي بيا غيره - يقول لعله بامور العجم^(٤) .

قال ابو الحسن المدائني : « راخبرني مشايخ من الكتاب ان دواوين الشام انما كانت في قراطيس (من البردي) وكذلك الكتب الى ملوك بني امية في جل المال وغير ذلك فلما ولي امير المؤمنين المنصور امر وزيره ابا ايوب المورياني

(١) الاماني للقالي طبعة الدار ٢٤٦

(٢) يلب على الظن ان يوحنا هذا هو يوحنا بن بطريق الترجمان ذكره الغنطي في

« اخبار الملوك » وقال انه كان اميتاً على الترجمة حسن التادية للساماني ٣٤٨

(٣) النهري ٣٣٦

(٤) فتوح البلدان طبعة ليدن ١٥٤-١٦٥

ان يكتب الرسائل بحمل المال في صحف وان تصغر الصحف فجرى الامر على ذلك «^١». ونسب الجهمياري استبدال القراطيس بالجلود في ايام العباسيين الى خالد بن برمك لما وزر للسفاح وذلك قبل ظهور الكعاب «^٢». حتى اذ كانت فتنة الامين تهميت الدواوين واخذت الجلود فيجيت او غسلت واذام الناس بيفساد سنين لا يكتبون الا فيها «^٣».

واكثر ما كان يكتب في الجلود خاصة صكوك المقارات والضياع وانواع الإقطاعات لقوتها على البقاء. وعلى ذكر الصكوك والجلود يجار لنا ايراد ملحمة من افكاه الملاح رواها ابن خلكان عن «كتاب الهدايا والتحف» للخالدين الشاعرين وقد تطلبناها في النسخة القديمة المحفوظة في دار الكتب المصرية فلم نجدها لما فيها من النقص وهي واردة في نسخة كاملة مصورة من الكتاب المذكور في ملك الدكتور سامي الدهان بدمشق. وهذا نص الملحمة نقلًا عن ابن خلكان :

« كان باصيهان رجل حسن النعمة واسع النفس كامل المروءة يقال له ساك بن النعمان وكان جوري منية من اهل اصيهان لما قدر ومثني تعرف بام عمرو ذلافراط حبه اباها وصبايته بها وهيا عدة من ضياعه وكتب عليه لذلك كتاباً وحمل الكتب اليها على غل فشاغ المهر بذلك وتحدث الناس به وانتظروه وكان باصيهان رجل متحاب بين ايركاكة جوري منية اخرى فلا اتصل به ذلك ظن بجهله وقلة عقله ان ساكا انا اهدى الى ام عمرو حلوداً ايضاً لا كتابة فيها وان مدا من الهدايا التي تستحسن ويحمل موقوفها عدد من تسمى اليه فاشتاغ حلوداً كثيرة ورحابها على بياض لتكون مديته ضمف مدية ساك وانفسعا ان التي بيت فشاغ وحبات الجلود اليها يوقفن على المهر تنيط عليه وكذبت اليه رقعة بنته ونجاب ان لا نكلمه ابداً وسألت بعض الشعراء ان يمدل ابياتاً في هذا المعنى لتودعها على الرقعة فقول ومنها :

أرأيت من يجدي الجلود دأ الى شيفته ساكا
واظن انك رمت ان تمكي فمك ذا ساكا
ذاك الذي اهدى الضياغ لام عمرو والصككا
فيشت منية كأنك قد مسحت عن فاككا^٤

وليت الخالديان نقلنا لنا الأبيات برمتها نظرفها وحلاوتها .

١. فتح البلدان طبعه ايدن ص ٤٦٥

٢. كتاب الرزراء والكتاب ٩٠

٣. الفهرست ٣٣

٤. وفيات الاعيان ٢٠٤٢٣